البعد التصويري في شعر دعبل

أ.م.د. فاتن فاضل كاظم
جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

يقف هذا البحث على البعد التصويري الذي يمثل احد الجوانب الابداعية الجمالية في القصيدة العربية، ذلك ان للقصيدة العربية ابعاد عدة تطرق النقاد الى اغلبها، والبعد التصويري احد هذه الابعاد التي تبرز قدرة الشاعر على التعبير عن احاسيسه، وبه تظهر مهارته في رسم الصور الشعرية بنظمه للتعبير عن معانيه وايصال مشاعره لمتلقيه من خلالها .

ويعد البعد الصوري في الشعر في بعض الدراسات الحديثة قراءة نقدية كسائر القراءات التي يمكن دراسة النص وفقها ,[1]ويمثل البعد التصويري في الشعر الأساليب التي يستخدمها الشاعر لخلق صور في ذهن المتلقي سواء اكان ذلك صورا واقعية او خيالية ، مما يجعل النص أكثر ثراء وجاذبية , أي الصور التي يخلقها في نظمه لإضفاء الجمالية على النص الشعري وتوصيل المعاني والمشاعر بطريقة مؤثرة , فالصورة الشعرية ليست مجرد وصف لشيء ما ، بل هي تجسيد للمشاعر الداخلية والتجارب الشخصية للشاعر ونقلها للمتلقي ليشاركه فيما يستشعره وما يخوضه من التجارب .

والصورة الفنية من مرتكزات النقد , وهي " الجوهر الثابت والدائم للشعر "[2], لأنها تكشف النص الأدبي وتحقق وظيفته الجمالية ، فهي وسيلة الشاعر في نقل فكرته وعاطفته إلى متلقيه , فالشعر قائم على الصورة لأنها من عناصر التعبير الفني ووسيلة أصيلة لنقل الإحساس إلى العمل الفني .

والشاعر دعبل الخزاعي (246 هـ) ابرز الشعراء الذي نظموا الشعر الاسلامي , وينتمي الى بيت عرف اهله بالعلم والادب , ونشا في بيئة الكوفة التي صقلت ثقافته وهذبت مشاعره فعاش تواقا لحب ال الرسول المصطفى ص ملتزما بالإشادة بفضائلهم والتغني بأمجادهم وفضائلهم , ملتزما بالتصدي لخصومهم .

وقد امتاز دعبل بمكانة علمية عالية فكان ذكيا فصيحا عالما وراوية ثقة , له ذوق رفيع في تخير الشعر الجيد , وعرف بشاعريته المطبوعة والمتمردة الثائرة , تميز شعره بالغنى الفني والعمق الدلالي، خاصة في توظيف الصور الشعرية التي تعكس رؤيته الفكرية والعاطفية , وشخصيته الساخرة والناقدة ,

[1] ابعاد التجربة الابداعية عند الشاعر فاضل العزاوي , نادية الهناوي , مجلة كلية التربية , الجامعة المستنصرية , ع2 , 2005 : 78 .
[2] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي , جابر عصفور , دار الثقافة , القاهرة , 1974 :7 .

واشتهر بجرأته وهجائه اللاذع ، خاصة في حق الخلفاء والولاة . وقد " تنوعت موضوعات الصورة الفنية في شعره واتخذت ابعادا ذات مستويات متباينة "[3].

وهذا البعد يصدق في كل الوان شعر دعبل الخزاعي واغراضه واولها غرض الهجاء الذي تميز به محاولا نقد ما يجد في مجتمعه من اشخاص واجهوه بعداء , او حالات سيئة شاعت في مجتمعه فوقف متصديا لكل ذلك ناقدا هاجيا معبرا عن مشاكل عصره وقضاياه الكبرى ومحاولا اصلاح بعض ما يمكنه منها .

ولم يتأت هذا البعد بلون صوري واحد بل بالوان عدة وظفها الشاعر في ديوانه , ومن ذلك استعمال الشاعر للصور الحسية ، مثل الصور البصرية والسمعية واللمسية التي تضفي على الشعر الحيوية والواقعية , والصور البيانية من التشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات .

وقد استمد دعبل البعد التصويري في شعره وصوره الشعرية من مصادر متنوعة ، فهي مرجعيات في شعره كقوله في قصيدته التي ينقض بها قصيدة الكميت :[4]

فان يك ال إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
وما مثل السموال في نزار الا هيهات قد قطع القرينا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنا لنصرتنا هجينا
من أي ثنية طلعت قريش وكانوا معشرا متنبطينا
لقد علمت نزار ان قومي الى نصر النبوة سابقينا

فالشاعر استمد دوال ابياته من الطبيعة الحية الساكنة والمتحركة (الخنازير , القرود) , والواقع الاجتماعي والسياسي , والتاريخ والشخصيات التاريخية والادبية (اسرائيل , الاعاجم , السموال , نزار , متنبطينا) , و التراث الديني(مسخن , قريش , النبوة) .

ويظهر شعر دعبل بن علي الخزاعي تمكناً فريداً في توظيف الصور الفنية، حيث نجح في تحويل الأفكار المجردة إلى مشاهد حية تعكس التزامه الديني ووعيه السياسي. تكمن قوة شعره في قدرته على المزاوجة بين الأصالة والتجديد، مما جعل صورته الشعرية مرآةً لعصره وهمومه.

[3] ديوان دعبل بن علي الخزاعي , تحق : ابراهيم الاميوني , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1998: 32.
[4] ديوانه : 129 .

المبحث الاول : اهمية البعد التصويري

للبعد التصويري في القصيدة العربية اهمية كبيرة الا انه في شعر دعبل يفوق ذلك , ويتضح في اغراضه كافة من مديح وهجاء وغزل ورثاء ووصف وحكمة , ويمكننا تلمس اهمية هذا البعد بأبيات منتقاة من ديوانه فيما يأتي :

1- التعبير عن المشاعر: استعمل الشاعر البعد الصوري للتعبير عن مشاعره ومحاولة إيصال أحاسيسه بشكل مباشر للمتلقي ، لتصبح القصيدة بمثابة نافذة تطل على عالم الشاعر الداخلي , كقوله فيمن حسن حاله فخاب امله فيه :[5]

فتى كنت ارجوه وامل يومه واشفق ان يغتاله حدث الدهر
فلما تبوا منزل اليسر والغنى رمى املي منه بقاصمة الظهر

فالشاعر يصور خيبة امله فيمن كان حاله بائسا ويخاف عليه مما قد يصيبه من تقلبات الزمن لحبه واهتمامه به , وكان يرجو منه الامل ويتوسم فيه الخير يوما اذا ما تغير وانتقل الى حال افضل , لكنه خيب امله يوم تيسر حاله وانقلب عليه محطما ما كان يامل فيه , والبعد التصويري في ابياته يجعلنا نستشعر ما يشعر به من حزن ممزوج بالغضب ونشاركه خيبة الامل بفعل المفارقة الحاصلة وما رسم من صور استعارية لاغتيال الدهر ورمي الامل , زيادة على قصم الدهر كناية عن الخذلان الشديد .

2- توضيح المعاني: وذلك تبسيط الفكرة المعقدة عبر مقارنتها بشيء مألوف , اذ يساعد البعد التصويري في شعره على توضيح بعض المعاني وإضفاء معنى أعمق على الأفكار التي يرغب الشاعر في التعبير عنها ، ويمكن المتلقي من فهم النص بشكل أفضل . كتصوير دعبل لصفة البخل وذمها بتقريبها وتوضيح معناها بقوله :[6]

ماكنت اذ طلبت يداي بك الغنى الا كطالب خطبة من اخرس
والمجد يفسد اللئيم بلؤمه كالمسك يفسد ريحه بالكندس
يا رب ان غنى اللئيم يسوؤني فاصرف غناه الى الجواد الاملس

ويصور دعبل بخيلا حاول الشاعر ان يطلب منه المال فمثل حاله بمن يطلب من انسان اخرس ان يقول خطبة لا كلمة واحدة وذلك دلالة على مقدار الشح والبخل لذي يملأ نفسه فالشاعر يسخر من طلب الغنى من بخيل لا يتمكن من اعطاء القليل , ثم ينتقل الى صورة تشبيهية اخرى يصف فيها مفارقة جميلة تصور تأثير المجد على اللئيم الذي لا يستحقه , فالمجد عادة يحسن صاحبه , لكنه مع هذا اللئيم

[5] ديوانه : 84 .
[6] ديوانه : 89 .

سيفسد عليه الامر , فمثله كمثل نبات المسك الذي يمتاز برائحته الطيبة الا ان تغلغل عروق نبات اخر (الكندس) فيه – وهو نبات يوصف للقيء او العطس ويتصف بلونه الاسود المختلف عن داخله الاصفر – فتغلغل هذا النبات مع المسك سيحول دون اخراج رائحته الفواحة , وهذا الحال يشبه حال اللئيم الذي مثلما يحول لؤمه دون وصوله الى المجد ونيل الصيت العالي فانه ان وصل المجد اليه سيكون تأثيره سلبا عليه , لذا يدعو دعبل ويتضرع الى الله سبحانه ان يصرف مال اللئيم الى الشخص الكريم السخي بطبعه الا انه مفلس لا يمتلك شيئا فهو الأولى بإعطاء المال وانفاقه .

3– إثارة الخيال وتوظيفه في التعبير واثراء النص : فالشاعر من دون توليد معنى او اختراعه واستطراق لفظ او ابتداعه فتسميته شاعرا مجاز لا حقيقة ,[7] وقد تميز البعد التصويري في شعر دعبل بخياله الواسع الذي بدوره يثير خيال المتلقي وحواسه ويضفي على النص جمالا . اذ يضيف البعد التصويري طابعا فنيا خاصا للنص ، ويجعله أكثر جاذبية وتأثيرا . كقول دعبل هاجيا لكف ذات بنان مخضب :

كأنما كفها اذا اختضبت مخالب الباز خرجت بدم

فعلى الرغم من انه يصف الكف هاجيا ووصف اختضابها ولون حنائها بمخالب طير الباز الملطخة بدم الفريسة الا انه بتصويره لها يثري الوصف ويجعله اكثر تأثيرا بوصفه للمراة التي تتزين بالجمال بينما تخفي الخبث داخله , ليتمكن المتلقي من تمييز هذا الكف المذموم الذي يهجوه عن اليد الممدوحة الكريمة ذات الكف المعطاء التي يصفها بقوله :[8]

فباطنها للندى وظاهرها للقبل

فالبعد التصويري في البيت وما فيه من مجاز مرسل يجعلنا نفهم فكرة الشاعر وسبب مدحه لصاحبها ونتأثر بما اضفاه تصويره المكثف للنص من ثراء .

اما عند وصفه لبخيل فانه يثير خيال متلقيه ويثري ابياته بوصف اخر :[9]

ان هذا الفتى يصون رغيفا ما اليه لناظر من سبيل

هو في سفرتين من ادم الطا ئف, في سلتين , في منديل

ختمت كل سلة بحديد وسيور قددن من جلد فيل

في جراب , في جوف تابوت موسى والمفاتيح عند اسرافيل

ودعبل في وصفه للبخيل يصور صعوبة اعطائه للمال واخراجه للرغيف وذلك بإبعاد مكان ذلك الرغيف بصور تشبيهية تثير خيال المتلقي فتجعله يشارك دعبل الراي في ذمه لهذا البخل وتزيد التصوير جمالا , زيادة على ذكره للرموز الدينية التي تثري الابيات وتتمثل بذكر (موسى , اسرافيل) واقترانها بلفظ (تابوت) دالا على البعد التاريخي ليزيد البعد التصويري اثراء للدلالة واثارة للخيال .

[7] العمدة , ابن رشيق , تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد , دار الجيل , بيروت , : 1 / 74 .
[8] ديوانه :119 .
[9] ديوانه : 117 .

4- التعبير عن الجمال: ويتميز البعد التصويري في شعر دعبل بتوظيف الخيال لخلق صور فنية مؤثرة والاتيان بها بتناسق ظاهر بين المضمون والأسلوب المعبر به مما يعطي لأبياته جمالًا وسلاسة وقوة وتأثيرا , ويضفي على القصيدة طابعًا جماليا خاصا , زيادة على جمال الطبيعة الذي يثير إعجاب الشاعر فيصوره بشعره ، كقوله في وصف ارض سهلة خضراء فيها الوان النبات وتوشحها بالالوان في قوله :[10]

وميثاء خضراء زريبة بها النور يزهر من كل فن
ضحوكا , اذا لاعبته الرياح تأود كالشارب المرجحن
فشبه صحبي نوارها بديباج كسرى وعصب اليمن
فقلت : بعدتم , ولكنني اشبهه بجناب الحسن
فتى لا يرى الا العطاء ولا الكنز الا اعتقاد المنن

فالشاعر يصف ارضا خضراء زاهية (ميثاء) مجسدا النور بجعله كالنبات يزهر , ويزيده جمالا بوصف حركته وتموجها , فهذه صور بصرية جميلة تزهو بالألوان وتزدهي بالتشبيهات التي تزيد الطبيعة جمالا وتثير اعجاب سامعها , لا سيما بتشبيها بالحرير الفارسي الفاخر والثياب اليمنية الملونة , ثم يتحول عن ذلك الى ما هو اشبه بهذا الجمال وهو الكرم وصاحبه المعطاء الحقيقي الموصوف به الذي لا يرى الكنز الا في العطاء ومنح الخير .

ونجد مثل هذا الجمال والاثارة في وصفه المؤثر للبرق الذي تظهر فيه براعة الشاعر في تصوير المشاعر الانسانية وتوصيلها من خلال الظواهر الطبيعية فيجذبنا لأبياته التي يقول فيها :[11]

ما زلت اكلأ برقا في جوانبه كطرفة العين يخبو ثم يختطف
برق تحاسر من خفقان لامعه يقضي اللبانة من قلبي وينصرف

فالصورة التشبيهية في البيت الاول تقرن هذا البرق بطرفة العين فالبرق يذهب بالبصر ويبهره بسرعة ثم يجسد البرق في البيت الثاني بصورة استعارية فيصبح البرق كائنا حيا يتصرف مصورا جمال الطبيعة الاخاذ .

لقد اهتم شاعرنا في بعده التصويري بجمال الطبيعة مستعملا الالفاظ الجذابة والتعبيرات البديعة مما أضفى على الشعر جمالا واكسبه جاذبية , فالبعد التصويري عنصر أساسي في بناء الجمالية الشعرية .

---

[10] ديوانه : 135 .
[11] ديوانه : 100 .

5-الاهتمام بأساليب القول والبناء الدرامي في البعد التصويري كقوله مادحا للمطلب الخزاعي بقوله :[12]

سالت الندى – لا عدمت الندى- وقد كان منا زمان عزب

فقلت له : طال عهد اللقا فهل غبت بالله , ام لم تغب ؟

فقال : بلى . لم ازل غائبا ولكن قدمت مع المطلب

فالشاعر يسال الندى رمزا للعطاء والخصب ويخاطبه مشخصا وكأنه انسان يقول ويجيب وكأنه صديق غائب , ويساعد البعد التصويري المتلقي في فهم النص وإثارة خياله , بتشخيصه للندى بصورة انسان يغيب ويحضر , موصلا ذلك السؤال والحكاية والبناء الدرامي .

6- تعزيز الالتزام الديني والأيديولوجي : يتميز البعد التصويري في شعر دعبل بالتركيز على الالتزام الديني والجانب الروحي ، وتوظيف الخيال في التعبير عن الأفكار والمعتقدات الإسلامية ، ويبرز البعد التصويري في شعره كأداة فنية تعكس ارتباطه بالقضايا الدينية والسياسية ، مثل مدح آل البيت ورثاء مظلوميته ، إلى جانب تجسيد المشاعر الإنسانية عبر تقنيات بلاغية متنوعة .

ومن ذلك مدح آل البيت والتغني بهم فحب آل المصطفى ص هو الخيار الأسمى , وفي ذلك شغل عن الدنيا وملذاتها ، ويعبر عن ذلك بابيات يظهر فيها ولاءه العاطفي لهم وتمسكه بمحبتهم وتفانيه في ذلك حتى اصبح حبهم شغله الشاغل فهم طريق النجاة وذلك بقوله : [13]

طرقتك طارقة المنى ببيات لا تظهري جزعا , فانت بدات

في حب آل المصطفى ووصيه شغل عن اللذات والقينات .

ان النشيد بحب ال محمد ازكى وانفع لي من القينات

فاحش القصيد بهم وفرغ فيهم قلبا , حشوت هواه باللذات

واقطع حبالة من يريد سواهم في حبه تحلل بدار نجاة

ويختم الابيات بكناية لطيفة بقطع العلاقة مع من سواهم . ويذكر مصائب ال البيت مثيرا متلقيه للتعاطف معهم لا سيما تائيته المشهورة وما فيها من حسرات وزفرات واهات مصورة .[14] ومن البعد التصويري في ذكر ظلامة ال البيت مشخصا الدهر بصورة انسان مستعيرا منه صفة الضحك . وذلك في قوله :

لا اضحك الله سن الدهر ان ضحكت وال احمد مظلومون قد قهروا

مشردون نفوا عن عقر دارهم كأنهم قد جنوا ما ليس يغتفر

واستعمال الصور الدينية في شعر دعبل وسيلة للتعبير عن الندم والتوبة والابتعاد عن الملذات , واثارة التفاعل العاطفي للمتلقي لتطهير روحه . كقوله :

[12] ديوانه : 48 .

[13] ديوانه : 59 .

[14] ينظر : ديوانه : 50 - 58 .

اصبحت اخبر عن اهلي وعن ولدي كحالم قص رؤيا بعد مدكر
لولا تشاغل نفسي بالألى سلفوا من اهل بيت رسول الله لم اقر
وفي مواليك للمحزون مشغلة من ان تبيت لمفقود على اثر

وللبعد التصويري دوره في التوجه نحو الجانب الإيجابي في انتاج صور مؤثرة على المتلقي لجذبه نحو الخلق الحسن ونصحه بالتوجه الجيد الذي يتناسب مع ما اراده الاسلام للانسان من رقي علمي وعملي كقول دعبل واصفا العلم بنصحه :[15]

العلم ينهض بالخسيس الى العلا والجهل يقعد بالفتى المنسوب
واذا الفتى نال العلوم بفهمه واعين بالتشذيب والتهذيب
جرت الامور له فبرز سابقا في كل محضر مشهد ومغيب

فيصور دعبل العلم والجهل مشخصا اياهما فكأنهما انسان ينهض ويقعد ليعلي شان العلم وينزل من الجهل .

المبحث الثاني: اوجه البعد التصويري

يتضح البعد التصويري في ديوان دعبل بثلاثة اوجه :

الوجه الاول : البعد الخارجي : ويتمثل في الأوصاف المرئية للاماكن والأشياء ، مثل وصف المناظر الطبيعية أو الأماكن التاريخية او للأشخاص .

ويمكننا تبين البعد التصويري في وصف دعبل لقوس السماء والمطر وتأثيرهما اذ يقول :

اذا القوس وترها ايد رمى فأصاب الكلى والذرا
واحيا ببلدته بلدة عفت بعد ان عفاها الصرى
فأصبحت والليل محلنكك واصبحت الارض بحرا جرى

فلا يذكر دعبل قوس السماء الا مصورا كيف انزل الله به المطر فأصاب ذرا الجبال واحيا به الارض , فيصور في البيتين التاليين كيف احيا البلاد واعشبها بالنبات بعد ان كانت متروكة ويابسة بالماء الذي تجمع فيها من المطر وتحول الى بحر جار , ونجد هذا البعد في وصف دعبل لحسن اللباس يقوله :[16]

اذا ما اغتدوا في روعة من خيولهم واثوابهم , قلت : البروق الكواذب

---

[15] ديوانه : 46 .
[16] ديوانه : 39 .

وان لبسوا دكن الخزور وخضرها وراحوا فقد راحت عليك المشاجب

فيصف ما هو خارجي ظاهر من خيول ولباس واثواب تزهو بالوان جميلة ويختم بيتيه بالمشاجب كناية عن حسن اللباس والتباهي به , فهذا الوجه من البعد التصويري في شعر دعبل بعد خارجي تبين فيما وصف الشاعر مما يحيط به .

الوجه الثاني : البعد الداخلي : ويتمثل بالتعبير عن المشاعر وتصوير الأحاسيس الداخلية للشاعر ، مثل وصف الحزن أو الفرح أو الحيرة .

ومن ذلك وصفه لفرحه بالضيف واكرامه محاولا ان يزرع عادات وقيم لصيقة بالعرب ودعا اليها الاسلام كقوله :[17]

نغمات الضيف احلى عندنا من ثغاء الشياة او ذات الرغا

تنزل الضيف – اذا ما حل في حبة القلب , والواذ الحشا

فيصور في البيت الاول بصورة سمعية فرحه بالضيف ويختم البيت الثاني بكناية جميلة تعبر عن مشاعره الداخلية ومنزلة الضيف في قلبه , ويتم الابيات بتصوير معزة الضيف وحب اكرامه بتكرار لفظ الضيف وتصوير لذة خدمته بكنايات جميلة في قوله :[18]

رب ضيف تاجر اخرته بعته المطعم وابتعت الثنا

ابغض المال اذا جمعته ان بغض المال من حيث العلا

انما العيش خلال خمسة حبذا تلك خلالا حبذا

خدمة الضيف , وكأس لذة ونديم , وفتاة , وغنا

واذا فاتك منها واحد نقص العيش بنقصان الهوى

ومن تشبيهاته قوله مفتخرا بإكرامه للضيف وسروره به :[19]

الله يعلم انني ما سرني شيء كطارقة الضيوف النزل

ما زلت بالترحيب حتى خلتني ضيفا له , والضيف رب المنزل

فالشاعر يصف سروره بالضيف وترحيبه به , ويقرن الضيف بالشيب البغيض الى نفسه ولكنه بهذا الجمع يتحول بمشاعره من البغض الى الحب لا لشيء الا لمنزلة الضيف واكرامه عنده فيقول :

وكل بكاء ربع او مشيب نبكيه , فهن به عنينا

احب الشيب لما قيل ضيف كحبي للضيوف النازلينا

فهذا الوجه من البعد التصويري في شعر دعبل بعد داخلي تبين في تصوير المشاعر التي يكنها الشاعر بإزاء الضيف .

[17] ديوانه : 36 .
[18] ديوانه : 36 .
[19] ديوانه : 116 .

الوجه الثالث : البعد الرمزي: ويتمثل بذكر ما يرمز إلى الاشخاص او أو الأفكار او المفاهيم المجردة ، ومن ذلك قول دعبل في ملوك بني العباس :[20]

ملوك بني العباس في لكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة كرام اذا عدوا وثامنهم كلب

فلفظ الكلب يرمز به الى ثامن بني العباس بمقارنه واضحة بين ملوك بني العباس واصحاب الكهف في تناص مع الآيات القرآنية ليصل منها الى اطلاق وصف الكلب ليرمز به لثامنهم .

ويفخر الشاعر بكرمه فيذكر الكلب رمزا في قوله :[21]

اذا نبح الاضياف كلبي تصببت ينابيع من ماء السرور على قلبي
فالقاهم بالبشر والبر والقرى ويقدمهم نحوي يبشرهم كلبي

فالكلب رمز للضيافة يدفع سماع صوت نباحه الشاعر الى البشرى والسرور بمقدم الضيف واحتفائه به .

ويستعمل الشاعر الشيب رمزاً للتقوى والابتعاد عن الملذات , اذ يذكر (الشيب) كرمز للتحول الروحي ونبذ الملذات والتحول عنها في قوله :[22]

اهلا وسهلا بالمشيب فانه سمة العفيف وحلية المتحرج
وكان شيبي نظم در زاهر في تاج ذي ملك اغر متوج
ضيف الم بمفرقي فقريته رفض الغواية واقتصاد المنهج
لا شيء احسن من مشيب وافد بالحلم مخترم الثياب الاهوج

فالشيب رمز للعفة ودافع للسير بالنهج الصحيح والاقتصاد بالملذات , وانتظامه في راس الانسان بمثابة التاج لراس الملك والافضل للإنسان الترحيب والاحتفاء به لا العكس .

والبعد التصويري في شعر دعبل واضح لا فيما انطوى عليه من وجه رمزي فحسب , بل فيما تضمنه شعره من صور واقعية حاول بها تصوير بعض مشاكل مجتمعه .

فقد يأتي البعد التصويري في شعر دعبل بصور واقعية لا رمزية ينتقد فيها بعض ما شاع في مجتمعه , ومن ذلك ذكره لسلوك مذموم في الدين والمجتمع عندما يكون الانسان ذي وجهين ويجسده بذكر صفة الحسد بقوله :[23]

وذي حسد يغتابني حين لا يرى مكاني , ويثني صالحا حين اسمع

---

[20] ديوانه : 38 .
[21] ديوانه : 45 .
[22] ديوانه : 65 .
[23] ديوانه : 96 .

ويضحك في وجهي اذا ما لاقيته ويهمزني بالغيب سرا ويلسع

ملأت عليه الارض حتى كأنما يضيق عليه رحبها حين اطلع

ويوضح الشاعر بتصويره الواقعي للحسود عن صراعه مع نفسه وقلقه الداخلي واعماقه التي تغلي , فلا يطيق رؤية محسوده وكأنما تضيق عليه الارض حتى ينعكس هذا الشعور على حياته وسلوكه مع الناس .

المبحث الثالث : الوان البعد التصويري في شعر دعبل

البعد التصويري في شعر دعبل أحد الجوانب الجمالية والفنية في البلاغة العربية ، وله دور مهم في خلق صورة ذهنية حية للمتلقي وذلك لقدرته على الايحاء والانزياح الدلالي بتبسيط الفكرة المعقدة وتجسيد المعاني المجردة بصور حسية مادية واخرى خيالية تعزز ادراك المتلقي وتقرب الفكرة لديه , وتثير خياله وتؤثر على عواطفه مرة من خلال توضيحها ومرة اخرى بمقارنتها بما هو مألوف او الارتقاء بها الى ما هو خيالي وغير مألوف وابتكار صور تدهش المتلقي بتعابير تلامس مشاعره .

ويتمثل البعد التصويري في شعر دعبل بصور عدة منها :

اولا : الصور الحسية :

لشاعرنا صور عدة استمدها من الحواس المادية التي جعلها الله سبحانه نوافذ الى عقل الانسان وقلبه يتحسس من خلالها نفسه وعالمه الخارجي ويتفاعل بها معه . وتكثر هذه الصور في شعر دعبل فمن صور سمعية الى اخرى بصرية ومن صور شمية الى صور لمسية ومنها الى اخرى ذوقية .

فمن الصور السمعية قوله في الكرم :[24]

لم يطيقوا ان يسمعوا وسمعنا وصبرنا على رحى الاسنان

صوت مضغ الضيوف احسن عندي من غناء القيان بالعيدان

ويجمع بين الصورة السمعية بالصورة الذوقية بذكر صوت مضغ الضيوف للطعام وغناء القيان كما يجمعهما في ذكره للعطش وشرب الماء في قوله مادحا :[25]

واصبحت تستحي القنا ان تردَها – وقد وردت حوض المنايا – صواديا

اذا الناس حلوا باللجين سيوفهم رددت السيوف بالقلوب حواليا

[24] ديوانه 132 .

[25] ديوانه : 139 .

فالقنا اي الرماح تستحي وتعطش وتشتاق وترد حوض المنايا ورود الابل العطشى للماء , فهذا البعد الصوري والجمع بين الصور الحسية بديلا عن الوصف المباشر يزيد الابيات جمالا وتأثيرا حتى انه يوصل هذا الوصف الى القلوب متجاوزا الاسماع .

وقوله هاجيا :[26]

ايا للناس من خبر طريف يغرد ذكره في الخافقين

فالذكر الحسن للانسان يخلق صيتا وسمعة بين الناس كأنه عصفور يسمع منه التغريد .

ومن الصور اللمسية قوله :[27]

يا جواد اللسان من غير فعل ليت في راحتيك جود اللسان

عين مهران قد لطمت مرارا فائق ذا الجلال في مهران

عرت عينا فدع المهران عينا لا تدعه يطوف في العميان

ويجمع دعبل في ابياته الصور الحسية فمن الذوقية (اللسان) الى اللمسية (راحتيك , لطمت) الى البصرية (عين , العميان) موظفا المثل بقولهم للرجل الذي يكذب في حديثه (هو يلطم عني مهران) , ومكررا بعض الالفاظ للتشديد على حسية الصور وقدرتها على التعبير في خطابه لعبد الله بن طاهر .

ثانيا : الصور البلاغية :

يتضح البعد التصويري في شعر دعبل بنظم شعره باساليب بلاغية يستعملها لخلق صور فنية مؤثرة وذلك من تشبيه واستعارة وكناية . وذلك كالاتي :

1- **التشبيه :** هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله وربطه بصفة او اكثر, فيراد بالتشبيه "الوصف بان احد الموصوفين ينوب مناب الاخر باداة التشبيه "[28].

والبعد التصويري واضح في تشبيهات الشاعر كقوله في الوداع :[29]

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الديم

فيصور وداعه مشبها بوداع فصل الربيع وجماله الاخاذ والامر كذالك في فقده .

وفي وصف ضعف البرامكة بعد قوتهم وتمكنهم بقوله :[30]

الم تر صروف الدهر في ال برمك وفي ابن نهيك والقرون قد تخلو

---

[26] ديوانه : 131 .
[27] ديوانه 132 .
[28] الصناعتين , ابو هلال العسكري , تحق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم , , القاهرة , 1952 : 239 .
[29] ديوانه : 126 .
[30] ديوانه : 113 .

لقد غرسوا غرس النخيل تمكنا وما حصدوا الا كما حصد البقل

وهذا البعد التصويري الواضح في استعماله التشبيه في ابياته ورسمها بشكل متقابل ليوضح الفارق بين قوتهم سابقا المشابهة لغرس النخيل بعمقه وقوته وثباته في الارض وصعوبة ازالته وبين سهولة حصاد نبات البقل .

ومن تشبيهاته وصفه لجبن القوم وتخاذلهم في الوقت المناسب عند لقاء العدو وادعاء الشجاعة والتظاهر بها في غير ذلك وتصوير ذلك بمقابلة حالهم بين الضعف والقوة بقوله :[31]

اسود اذا ما كان يوم كريهة ولكنهم يوم اللقاء ثعالب

والبعد التصويري بارز في اهاجيه اذ يهجو احدهم مشبها بقوله :[32]

كأنه كبش اذا ما بدا لكنه في طبعه نعجة

ويوضح تشبيهه الفرق الواضح بين ما يبدو من مهجوه مما يرى بالعين من صفات القوة وبين ما يظهر في طباعه بفعل تصرفه ويعمق هذا المعنى التضاد بين الوصفين .

2- **الاستعارة** : لون اخر من التصوير قريب من التشبيه وهي " ان تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء ال اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه "[33], ففي الاستعارة يكتفي بالاسم المستعار عن الاصل , وهذا البعد التصويري موجود بكثرة في اشعار دعبل .

ومن ابرزها ما تناقلته الكتب النقدية من قوله :[34]

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب براسه فبكى

قد كان يضحك في شيبته واتى المشيب فقلما ضحكا

ذلك ان دعبل استعار للمشيب صفة الضحك من الانسان , اذ " شبه المشيب بإنسان وحذف المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الضحك "[35].

ويفتخر الشاعر بكرمه قائلا :[36]

بانت سليمى وامسى حبلها انقبضا وزودوك , ولم يرثوا لك الوصبا

قالت سلامة : اين المال ؟ قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

الحمد فوق مالي في الحقوق , فما ابقين ذما , ولا ابقين نشبا

ويختم الابيات بغناء القدر لتجتمع هذه الاستعارات التي تبعث الحياة فيما لاحياة فيه بقوله :

لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها بكى العيال , وغنت قدرنا طربا

اذ يجعل من كل من الحمد والمال والقدر كائنات حية تتصرف كالانسان .

---

[31] ديوانه : 39 .
[32] ديوانه : 64 .
[33] دلائل الاعجاز , عبد القاهر الجرجاني , تحق : محمد رشيد رضا , القاهرة , ط5 , 1372 ه : 53 .
[34] ديوانه : 107 .
[35] فنون بلاغية , احمد مطلوب , دار البحوث العلمية , الكويت , ط1 , 1975 : 134 .
[36] ديوانه : 40 .

ومثل ذلك قوله في الاخوان :[37]

اخ لك عاداه الزمان فاصبحت مذممة فيما لديه العواقب

متى ما تذوقته التجارب صاحبا من الناس تردده اليك التجارب

فالبعد الاستعاري واضح بصور استعارية يجعل فيها الزمان والتجارب انسانا يعادي ويتذوق .

3- **الكناية** : من الاساليب البلاغية العجيبة وهي " ان يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة , وانما يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به اليه ويجعله دليلا عليه "[38] , ولا يأتي بها الا الشاعر الماهر الحاذق الخبير بأساليب القول .

ومن كنايات شاعرنا دعبل قوله هاجيا لاحدهم :[39]

ابا جعفر واصول الفتى تدل عليه بأغصانه

وذلك كناية عن البخل وقلة العطاء فالدليل على اصل المرء الطيب يتبين من عطائه كالشجرة التي يستدل على اصلها مما تعطيه اغصانها .

وفي وصف الشيب قوله :[40]

كان ينهى فنهى حين انتهى وانجلت عنه غيابات الصبا

خلع اللهو , واضحى مسبلا للنهى فضل قميص وردا

كيف يرجو البيض من اوله في عيون البيض سيب وجلا

كان كحلا لماقيها , فقد صار بالشيب لعينيها قذى

فالشاعر يصف تحول النساء تجاه الرجال لدى رؤيتها الشيب بكنايات جميلة بتشبيه الشباب بالكحل للعين والشيب بالقذى فيها . ويعلل في موضع اخر ذلك الشيب الذي تعجب من رؤيته فيه والحال ان ظهوره لا لكبر سنه بل لخطوب الدهر واصفا اياه بكناية اخرى بقوله :[41]

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب رأت بي شيبا عجلته خطوب

وما شيبتي كبرة غير انني بدهر به راس الفطيم يشيب

ومثل ذلك في قوله في الاسفار ونفعها في التنفيس عن الهموم :[42]

وقد يمزج دعبل بين الوان تصويرية عدة في صور متتالية كقوله معاتبا :[43]

---

[37] ديوانه : 38 .
[38] دلائل الاعجاز : 52 .
[39] ديوانه : 64 .
[40] ديوانه 36 .
[41] ديوانه : 40 .
[42] ديوانه 35 .
[43] ديوانه 37 .

اما ان ان يعتب المذنب ؟ ويرضى المسيء ولا يغضب

وغول اللجاجة غرارة تجد , وتحسبها تلعب

ابعد الصفاء , ومحض الاخاء يقيم الجفاء بنا يحطب

فيجعل اللجاجة كأنها انسان يجد ويلعب , ومثلها الجفاء الذي يحطب , ثم ينتقل الى الكناية ليصور تحول الصفاء بينهما فيقول :

وقد كان مشربنا صافيا زمانا , فقد كدر المشرب

وينتقل في عتابه مشبها لمعاتبه براكب السبع كي يهابه الاخرون , وفي الوقت نفسه يخافه كناية عن التكبر على بني جنسه .

لقد كان البعد التصويري في شعر دعبل أحد الجوانب الجمالية والفنية التي عكست قدرة الشاعر على رسم الصور الحية وما فيها من ايحاء وانزياح دلالي يثير خيال المتلقي ويؤثر على عواطفه ويعزز ادراكه ويجعله مشاركا فاعلا .

المصادر

* ابعاد التجربة الابداعية عند الشاعر فاضل العزاوي , نادية الهناوي , مجلة كلية التربية , الجامعة المستنصرية , ع2 , 2005 .

*دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحق : محمد رشيد رضا , القاهرة , ط5, 1372 هـ.

* ديوان دعبل بن علي الخزاعي، تحق : ابراهيم الاميوني , دار الكتب العلمية , بيروت , ط1 , 1998 .

* الصناعتين، ابو هلال العسكري، تحق: علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم , , القاهرة , 1952.

* الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور , دار الثقافة , القاهرة , 1974 .

* العمدة , ابن رشيق , تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد , دار الجيل , بيروت .

* فنون بلاغية , احمد مطلوب , دار البحوث العلمية , الكويت , ط1 , 1975.